جلال السعيد الحفناوي *

صورة مكة والمدينة والحج في آداب وسط آسيا

رحلات الحج القازاقية نموذجًا

(الصفحات ٥٩- ٨٨)

ملخّص

هذه دراسة لها أهميتها لأنها تتناول ارتباط المسلمين بوسط آسيا بالعالم الإسلامي رغم عشرات السنوات من الاحتلال السوفيتي ومحاربة الدين وقتل رحاله وحظرعباداته.

بلدان وسط آسيا : اوزبكستان،قرغيزستان، تركمنستان وطاجيكستان لم تنقطع يومًا عن العالم الإسلامي، وأحد أواصرهذا الوصل كان الحج ومدينة مكة المكرمة.

البحث يتناول الحج القازاقي باعتباره نموذجًا لحج بلدان آسيا الوسطى، ويتناول الأسرالتي هاجرت منها إلى مكة للمجاورة بعد الاحتلال، ويذكرما أبدته شعوب هذه المنطقة من بسالة استمرت أكثرمن نصف قرن لمقاومة المحتلين من روسيا القيصرية وروسيا الشيوعية.

يرى الباحث إن مكة المكرمة كان لها دور كبيرفي تغذية روح الجهاد بوجه المحتلين. ولكثرة المهاجرين إلى مكة من هذه الاصقاع أطلق عليهم لقب

* - أستاذ اللغات الشرقية والحضارة الإسلامية المساعد الجامعة المصرية للثقافة الإسلامية. ألماطي - قازقستان.

«البخارية» وبرزمنهم علماء كبار، ولهم مدارسهم المعروفة في مكة مثل المدرسة الأرغونية ومدرسة قاتباي.

للمسلمين في هذه الأصقاع قبل الاحتلال الروسي رحلات مستمرة وتواصل مع مكة، أما بعد الاحتلال فقد بدأت الرحلات وكأنها بداية عهد جديد مع الإسلام ومع العبادات الإسلامية.

نالت صورة مكة والمدينة والحج مكانة بارزة في آداب وسط آسيا وهي: الأدب القازاقي والأدب الأوزبكي والأدب الطاجيكي والأدب التركماني والأدب القيرغيزي وأنتجت الشعوب الإسلامية في منطقة وسط آسيا أدبًا وفيرًا تناول الجوانب الحضارية المختلفة لمكة المكرمة والمدينة المنورة وتجربة الحج الإيمانية وذلك من خلال الشعروالنثروأدب رحلات الحج . ويتناول هذا البحث صورة مكة المكرمة والمدينة المنورة في **رحلات الحج القازاقية** كنموذج لما أنتجته الشعوب الإسلامية في وسط آسيا من أدب وفيرفي هذا الفن الأدبي الذي نشأ عند المسلمين نتيجة تأدية فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وظلت مكة المكرمة والمدينة المنورة الملاذ الآمن للشعوب الإسلامية عامة ولمسلمي وسط آسيا خاصة حيث كانت قلوب مسلمي وسط آسيا عامة وقلوب مسلمي قازاقستان خاصة تهفوإلى زيارة الأماكن المقدسة ليعبّوا من فيض علمها الوافرحيث كان الحرم المكي ـ ولا يزال ـ جامعة إسلامية مفتوحة لعلماء العالم الإسلامي والملاذ الآمن لهم فهاجرإليه علماء وسط آسيا وعاشوا في مكة مجاورين فألّفوا وأبدعوا بفضل عبقرية المكان مؤلفات عظمية في شتى مجالات المعرفة، و**كان لها دورمهم في تغييرالوجه الحضاري للشعوب الإسلامية في وسط آسيا**، أضف إلى هذا الحافزالسياسي والجهدي الذي جذب علماء وسط آسيا إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة حيث **شكل الحَرَمان الشريفان الوعي السياسي لحركات التحررضد الروس،** واستمدوا من المجاورة أفكارًا دينية وجهادية ساعدتهم في حركات الاستقلال

عن الاتحاد السوفيتي. تعتبر كتابات الرحالة القازاق وشهاداتهم عن مكة المكرمة والمدينة المنورة مصدرًا مهمًا من المصادر التاريخية، ومادة علمية يمكن أن تساعدنا في التعرف على كثير من الجوانب المهمة في تاريخ مكة المكرمة وتأثيرها في مسلمي قازاقستان بشكل خاص ومسلمي وسط آسيا بشكل عام.

ويهدف هذا البحث إلى بيان صورة مكة والمدينة والحج في آداب منطقة وسط آسيا من خلال أدب الرحلات القازاقية. وترجع أهمية هذه الدراسة إلى اعتبارها «دراسة حالة» يمكن تطبيقها على باقي الجمهوريات الإسلامية وهي أوزبكستان وقيرغيزستان وتركمنستان وطاجيكستان وكشف اللثام عن آداب هذه الشعوب الإسلامية وخاصة أدب رحلات الحج الذي لم ينل حظًا وافرًا من الذيوع والانتشار لاعتبارات كثيرة منها الغزو الروسي والاختلافات اللغوية والإثنية.

وقد رجعت إلى مصادر عديدة بالعربية والفارسية والتركية والقازاقية[1] تناولت الجوانب التاريخية والجغرافية والحضارية للجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا في فترة الاحتلال الروسي لها، وبعد الاستقلال، واعتمدت على المنهج التاريخي في دراسة هذه الظواهر وتحليلها. وتكمن مشكلة الدراسة في ندرة المادة العلمية الخاصة بأدبيات الحج، وقد واجه البحث صعوبات كثيرة في سبيل الحصول على رحلات الحج القازاقية، ولم أعثر على رحلة حج قازاقية مكتوبة تندرج تحت أدب الرحلة إلى الحج، ولعل هناك رحلات حج قازاقية مخطوطة لم تنشر حتى الآن لأسباب تتعلق بالغزو الروسي الذي كان يصادر هذا النوع من الأدب.

وقد استقيت المادة العلمية الخاصة برحلات الحج القازاقية من أفواه الحجاج الذين أتيحت لهم الفرصة للذهاب للحج، ومن خلال خواطرهم المكتوبة في الصحف والمجلات التي تصدر في قازاقستان بالقازاقية والروسية وذلك بعد الاستقلال عام ١٩٩١م، وهي تجربة لا تزال في مهدها ولا يمكن تقييمها بمفهوم النجاح والفشل.

وسوف أتناول في بحثي هذا صورة مكة والمدينة في رحلات الحج القازاقية التي قام بها رحالة مسلمون من قازاقستان بوسط آسيا، متتبعًا هذه الرحلات من الناحية التاريخية منذ البدايات الأولى لهذا الفن وحتى العصر الحديث ومقدمًا لنماذج من الرحلات القازاقية، أتناول الأسباب التي جعلت الرحالة القازاق يشدون الرحال إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة طلبًا لأداء الفريضة وطلب العلم، والهجرة إلى الله، والمجاورة[٢]، وطلب الإجازات العلمية التي تعد أرفع الإجازات شأنًا لدى مسلمي قازاقستان ووسط آسيا. وسيركز البحث على وصف الرحلة لصورة مكة والمدينة، والأثر السياسي والاجتماعي والديني واللغوي لهذه الرحلات في مسلمي قازاقستان ومكة المكرمة والمدينة المنورة في وجدان مسلمي قازاقستان.

الغزو الروسي لوسط آسيا

بدأ التوسع الروسي في منطقة تركستان في أواسط القرن السادس عشر الميلادي وتواصلت حلقاته حتى مطلع القرن العشرين. وكان إقليم الباميرالتابع لطاجيكستان الحالية آخر إقليم إسلامي ضمه الروس سنة ١٩٠٠م. ولم يستطع الغزو الروسي إن يوقف انتشار الإسلام ولم يحد من نشاطه، بل على العكس حيث نجد أن الإسلام سجل تقدمًا هائلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أيام حكم كأترين الثانية على سبيل المثال لا الحصر[٣].

وأخذت القوات الروسية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تزحف على المناطق الإسلامية في آسيا الوسطى وتضمها بالتدريج إلى حدود الإمبراطورية الروسية، وكانت التشكيلة السياسية لآسيا الوسطى وتركستان الشرقية عند الاستيلاء الروسي على النحو التالي:

دولة بني يادجار في خوارزم.

دولة أمراء ما نجيت نوغلي في غربي قازاقستان.

دولة سلاطين القازاق في الشمال الغربي لقازاقستان.

دولة بني جاغتاي في تركستان الشرقية وولاية بني صو[٤].

واستمرت الحرب بين الأتراك والروس في هذه المنطقة أكثرمن نصف قرن، وفي القرن الثامن عشرالميلادي خطا الروس أول خطوة لهم في سبيل السيطرة على آسيا الوسطى، وبعد أن فشلوا في هجومهم على خيوه سنة ١٨٣٨ نجح أول هجوم روسي على خانية خوقند عام ١٨٦٥م وهو ما أسفرعن دخول طشقند وضمها إلى روسيا، وبعدها دخلت سمرقند و إمارة بخارى ١٨٦٨م تحت الوصاية الروسية، كما دخلت تحتها أيضًا خانية خيوة ١٨٧٦م وصارت سيطرة الروس كاملة على آسيا الوسطى. في عام ١٨٦٨م تغيراسم هذه المنطقة إلى اسم تركستان واختارالروس طقشند لتكون عاصمة هذه المنطقة، وخطا الروس خطوات واسعة في سبيل تغلغل الثقافة الروسية في آسيا الوسطى على حساب الثقافة الإسلامية، وشاعت الأفكاروالألفاظ الجديد التي كانت مطلوبة لبيان الثقافة الجديد في مسيرة الحياة اليومية، وقد استقرت السلطة السوفيتية في طقشند لأول مرة في نوفمبر١٩١٧[٥].

وقام الروس بتفريغ جمهوريات آسيا الوسطى من مواطنيها الأتراك المسلمين واستبدالها بعرقيات أخرى، ونقل المسلمين إلى مناطق أخرى أو ما عرفت بالهندسة البشرية، وممارسة القمع المستمربتكلفة يسيرة بسبب القرب المكاني بين حدود روسيا ومواقع هذه البلاد، وتدميرالقوة الروسية للمسلمين بإخضاعهم أولا لموجات التنصير، ثم ثانيًا لفلسفات الإلحاد الشيوعي[٦].

وقاموا بتشريد المسلمين وقتلهم بأحكام إعدام وبالنفي إلى سيبيريا، وهدم المساجد، وقد بلغ عدد المساجد التي تم هدمها أو إغلاقها أو تحويلها إلى دور لهو ٦٨٨٢ مسجدًا. وتخلصوا من رجال الدين البارزين المستقلين أو المعادين ومنهم الشيخ برهان البخاري قاضي قضاة تركستان، والشيخ خان مروتن خان مفتي بخارى، وقتلوا الزعماء السياسيين وشردوهم مثل الحاج خواجه منارئيس جمهورية

تركستان، ومولانا ثابت رئيس مجلس الوزراء، وعثمان أورازقائد مقاطعة كاشغر[٧].

وحظرالاتحاد السوفيتي تدريس الدين الإسلامي في المدارس والجامعات وأعلن أن الشيوعية الماركسية واللينينية هي أيديولوجية الاتحاد السوفيتي الرسمية، والنضال من أجلها هو أحد عقائدها، وكل دين يعتبرعدوًا لدودًا لها. وشنت السلطة الشيوعية أكبرهجوم لها على الدين الإسلامي ١٩٢٨م واستمرهذا الهجوم وهذا العداء ولم يتوقف. وقد تميزبإغلاق الجوامع كلها إلا النادرجدًا منها، ورافق هذا الهجوم حملات دعائية شعواء ضد الدين الإسلامي كانت تنسق بحيث تحقق أقصى ما يمكن من تأثير كان يشنها «**اتحاد المناضلين في سبيل الكفر بالله**» الذي تأسس ١٩٢٥م ثم بدأت في ١٩٣٢م. بملاحقة رجال الدين المسلمين الذين كانوا يتهمون بتخريب الثورة أو التجسس لصالح اليابان أو ألمانيا أو بريطانيا في نهاية المطاف[٨].

ورغم هذا الاحتلال والعزلة نجح مسلموآسيا الوسطى في المحافظة على هويتهم الإسلامية في وجه الظلم والبطش الشيوعي، وكانوا يصومون ويصلون سرًا حتى سقط الاتحاد السوفيتي في ٢٥ ديسمبر١٩٩١م.

استقلال الجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا:

استقلت الجمهوريات في وسط آسيا وهي: قازاقستان وأوزبكستان وتركمنستان وقيرغيزستان وطاجيكستان عن الاتحاد السوفيتي المنحل في ٢٥ ديسمبر١٩٩١م بعد قرون من المعاناة من التوسع الروسي في هذه المناطق والذي بدأ في أواسط القرن السادس عشرالميلادي، واستمرحتى الثورة الشيوعية في عام ١٩١٧م والتي كادت أن تقضي على التراث الإسلامي في هذه الجمهوريات بعد أن أعلنت الثورة الشيوعية معاداتها الصريحة للدين ومارست اضطهادها الشديد ضد المسلمين، وثم تمزيق هذه الشعوب الإسلامية و إخضاعها التام للسلطة

الشيوعية وحورب الإسلام، ومنع أهله من ممارسة عقائدهم وشعائرهم، وقسمت بلاد المسلمين في آسيا الوسطى إلى دول صغيرة فرضت عليها الشيوعية من ناحية والعزلة عن بعضها البعض من ناحية أخرى[٩].

وسبق انهيار الاتحاد السوفيتي حركات مقاومة إسلامية شديد قامت على إثبات الهوية الإسلامية للمنطقة، مثل الصدام المسلح الذي حدث عام ١٩٧٨م بين سكان جمهورية قازاقستان، والقوات الروسية وقامت على أثره القوات الروسية باستخدام القوة الميكانيكية لقمعه ثم سقط الاتحاد السوفيتي في ٢٥ ديسمبر ١٩٩١م. يقول الزعيم الشعبي القومي مصطفى أوغلوا عقب انهيار الشيوعية في الاتحاد السوفيتي: «نعم لم نعد نعرف كيف نصلي لكننا نؤمن بالله ربًا وبسيدنا محد رسولا ونبيًا ونعرف إننا على الإسلام نحيا وعلى الإسلام نموت، لكننا لا نعرف هذا الجمال الذي يملأ قلوبنا والذي في سبيله قاومنا الشيوعية. إني آمر ـ من الآن ـ بأن يُرفع الأذان في كل المساجد التي أغلقها الشيوعيون، يرفع خمس مرات في اليوم إلى أن يتعلم شعبنا كيف يصلي، عندئذ يكون الأذان ومعه تقام الصلاة في كل أرجاء بلادنا. لقد عادت إلينا شخصيتنا الإسلامية، ولا يمكن التفريط فيها. إننا مسلمون وسنظل مسلمين»[١٠].

مساهمة علماء وسط آسيا في الحضارية الإسلامية:

أدى انتشار المسلمين في وسط آسيا، واعتناق سكانها الأصليين للإسلام إلى غلبة اللغة العربية لغة وثقافة في أرجاء المنطقة، مما أدى إلى تحول حواضرها الشهيرة مثل بخارى وسمرقند والشاش وترمذ ونسا ومرو ونسف وبيهق وخجند إلى مراكز علمية تحفل بالشعراء والعلماء والأدباء واستقطب بعضها لطالبي العلم من مدن وأقاليم العالم العربي، حيث كانوا يردون إليها للأخذ عن علمائها والسماع عليها، كما أن بعض علماء المنطقة تنقلوا في مدن وحواضر العالم العربي وعلى رأسها مكة المكرمة والمدينة المنورة للالتقاء بالعلماء والدرس عليهم والأخذ عنهم،

أو التدريس في مدارسها وجوامعها [١١].

وقد ساعد الإسلام على توحيد الشعوب المختلفة في وسط آسيا وأثّر في عادات الناس وتقاليدهم ولعب دورًا مهمًا في تقدمهم الحضاري، كما لعبت شعوب وسط آسيا دورًا مهمًا في ازدهار الحضارة الإسلامية.

ففي عهد الطاهريين والسامانيين ظهرت المدارس الإسلامية في آسيا الوسطى، وبرزت مراكز إسلامية قوية في العلوم والثقافة الإسلامية، خاصة ظهور بخارى وظهور سمرقند في هذا المضمار، وبذا ظهر الأطباء والحفاظ والفقهاء والشعراء واللغويون والنحاة والمفسرون كرجال عظام أفرزتهم هذه المنطقة، وإن ذكر البخارى والترمذي لابد أن يكون دليلاً على هذا. ومما لا شك فيه أن الخطوات الأولى التي أدت إلى ازدهار العلم الإسلامي في آسيا الوسطى قد تمت في القرنين الثاني والثالث الهجري [١٢].

وقد أنجبت منطقة وسط آسيا مجموعة من أشهر العلماء في تاريخ الإسلام ممن لا نحتاج إلى التعريف بهم نظرًا لتأثيرهم البيّن ودورهم الكبير في مسيرة الفكر العربي والإسلامي نذكر منهم، في مجال الحديث أبا عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ. ومحمد بن مزيد بن ماجه (ت:٢٧٣هـ) ومحمد بن عيسى الترمذي (ت:٢٧٨هـ) وأبا عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي (ت:٣٠٣هـ) وأبا بكر بن أحمد بن الحسين بن علي بن عبدالله البيهقي (ت:٤٥٨هـ) والحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت:٥١٠هـ).

وفي مجال الفقه: أبا بكر بن محمد بن علي بن إسماعيل القفال الشاشي (ت: ٢٧٩)، وأبا العباس جعفر بن محمد المستغفري النسفي (ت:٤٣٢هـ) وشمس الأمة محمد بن أحمد السرخسي (ت:٤٨٢هـ). ومن الذين كتبوا حول الملل والنحل محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ). ومن اللغويين والنحاة إسماعيل بن حماد الجوهري (ت:٣٩٣هـ) وجارالله محمود بن عمر الزمشخري

(٥٣٨هـ) وناصربن عبدالسيد الخوارزمي (ت:٦٤٩هـ).

وفي العلوم: أحمد بن كثيرالفرغاني المشهورفي علم الهيئة، ومحمد بن موسى الخوارزمي واضع علم الجبر(ت: ٢٣٦هـ) وأبا علي الحسين بن عبدالله بن سينا صاحب *القانون في الطب* (ت: ٤٣٢هـ) وأبا الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي (ت:٤٤٠هـ) ومن الفلاسفة أبا نصرمحمد بن محمد بن طرخان الفارابي (ت:٣٣٩هـ) [١٣].

إلى جانب علماء آخرين لا يتسع المجال لذكرهم وكانت لهم مشاركة كبيرة في بناء صرح الحضارة الإسلامية من خلال إسهاماتهم العملية في شتى ميادين المعرفة وما أنتجوه من كتب صارت مصادرأساسية للعلوم العربية والإسلامية عند المسلمين في العالم الإسلامي، وصارت منابع أصيلة في العلوم الأخرى كالطب والهندسة والفلك والرياضيات لدى العلماء والباحثين الأوربيين الذين درسوها واستفادوا منها.

مكة والمدينة في وجدان مسلمي وسط آسيا:

ظلت مكة المكرمة والمدينة المنورة ماثلة في وجدان مسلمي وسط آسيا وستظل أفئدتهم تهوي إليهما، أملهم أن يشدوا الرحال إلى الحرمين الشريفين مهاجرين ومجاورين وكانوا يعتبرونهما وطنًا ثانيًا لهم خاصة بعدالغزو الروسي لوسط آسيا. واتخذوا منهما ملاذًا آمنًا وقاعدة للتعليم والدراسة ونيل الإجازات العلمية من الحرمين الشريفين ومن ثم العودة إلى بلادهم لرفع لواء الجهاد والإصلاح الديني، وقد تركت رحلات الحج القازاقية آثارًا بليغة في مسلمي وسط آسيا حيث تسابق الأمراء والأغنياء في إرسال التحف والهدايا والأموال للحرمين الشريفين وبناء المدارس والأربطة في مكة والمدينة، وتؤكد الروايات القازاقية أن كونانباي والد الشاعرآباي بنى رباطًا للحجاج في مكة المكرمة اسمه «طاقية» [١٤].

وقد أطلق أهل مكة المكرمة لقب «البخارية» على كل القادمين من وسط آسيا والجمهوريات الإسلامية التي كانت خاضعة للاتحاد السوفيتي السابق وسكان تركستان الغربية من القازاق والأوزبك والتركستان والطاجيك والقيرغيز إضافة إلى القادمين من القوقاز كالداغستانيين والشيشان والشراكسة الذين تدفقوا على مكة المكرمة بعد عام ١٣٦٢هـ أي بعد أن شن الروس حروبهم على وسط آسيا وضموها إلى الاتحاد السوفيتي الشيوعي، وعندما بدأ الروس محاربة الدين الإسلامي بالتضييق على المسلمين من خلال إغلاق المدارس الدينية والمساجد ومنعهم من الصلاة ومن التحدث بلغاتهم وتغييرأبجديتها من الخط العربي الذي كان يربطهم بالقرآن الكريم إلى الأبجدية الروسية وفرض عليهم التعليم والتحدث باللغة الروسية، عندئذ هاجرت كثيرمن العائلات القازاقية والأوزبكية والطاجيكية والقيرغيزية والتركمانية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة مجاورين، واتخذوا أجزاء من مكة والمدينة مناطق خاصة سميت بأسمائهم مثل زقاق البخارية و«شوهدت مكة في هذا العهد تنقسم باعتبارالأجناس إلى أقسام تشبه المستعمرات في منطقة يحتلها جاليات الترك، وثانية يحتلها أهل بنغاله والهند وغيرها يحتلها أهل بخارى» [١٥].

ونقلت هذه الجاليات معها إلى مكة عاداتها وتقاليدها وأخلاقها وكثيرًا من صناعتها، ونستطيع القول أن مجموعة الأجناس والجاليات أثرت في تكوين طابع مكة حتى إذا استقام ذلك الطابع استطاع أن يدمغ جميع القاطنين والمجاورين بدمغة واحدة يبدو أثرها في أكثرتقاليدهم وعاداتهم ولغتهم وطريقة حياتهم [١٦].

كان للمجاورة في مكة آثارمتعددة منها الأثرالديني حيث كانت الغاية من المجاورة لكثيرمن مجاوري الحرم الشريف، العبادة وتلقي العلوم الدينية وقد نال المجاورون من وسطِ آسيا حظًا وافرًا من العلوم الدينية سواء بالسماع أو الإجازة.

يقول الدكتورعبدالله العثيمين عن تأثربيئة المدينة المنورة في طلاب العلم

الذين رحلوا إليها من أنحاء العلم الإسلامي ووسط آسيا: «**كانت المدينة المنورة ملتقى العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطارالإسلامية، كان بعض هؤلاء يأتي إليها فيستقربها، وكان بعضهم يأتي إليها فيستقيم فيها فترة ثم يغادرها إلى وطنه وقد ضمت في تلك الفترة بالذات علماء درس عليهم وتأثربهم عدد ممن أصبحت لهم أدوارمهمة في بلدانهم خلال لك العصر**» (١٧).

وكثيرمن الأسرالبخارية الموجودة الآن بمكة والمدينة جاءوا في البداية للحج وفضلوا البقاء في تلك البلاد المقدسة الآمنة، حيث يستطيعون أن يمارسوا شعائرهم الدينية بحرية، ويتعلموا أصول دينهم، حتى صاروا مثلاللشجاعة والإقدام في الشوق إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، رغم المخاطرالتي كانت تحفّهم من كل جانب. **حتى أن الشاعرالباكستاني محمد إقبال عندما تحدث عن رحلته الخيالية للحج لم يجد سوى الفتى البخاري ليشاركه هذه التجربة الفريدة.**

علماء وسط آسيا في مكة والمدينة:

ظلت مكة المكرمة أهم مركز لجذب علماء وسط آسيا بشكل خاص وعلماء العالم الإسلامي من المشرق والمغرب على السواء، مما جعلها عاصمة للثقافة الإسلامية قديمًا وحديثًا، وقد ضاعف من مكانة مكة الثقافية والريادة العلمية الموجات المتتالية من الرحلات العلمية التي قام بها علماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي طلبًا للعلم والمجاورة لبيت الله الحرام، والتي كانت تستغرق سنوات وأحيانًا مدى الحياة، وقد أسهم العلماء المجاورون في وجود مثل هذه الظاهرة الفريدة التي انفردت بها مكة دون غيرها من الحواضرالإسلامية.

وبدأت مكة المكرمة تستقبل أعدادًا كبيرة من علماء وسط آسيا مهاجرين ومجاورين مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وكان لهؤلاء العلماء البخاريين دوربارزفي الحركة العلمية في مكة المكرمةعبرالعصوربعد أن صاروا جزءًا من النسيج الاجتماعي لسكان مكة من خلال إنشاء المدارس

والكتاتيب والتدريس في الحرم وكانوا من البيوت التي تخصصت للعلم.

ومن «بيوت العلم البخارية نذكربيت السيد كوجك وعرف منه العلامة السيدعبدالله البخاري وكان قد جاوربمكة في أواخرالقرن الثالث عشرواشتغل بالتدريس، وقد توفي عام ١٢٩٧هـعن ذرية كان منهم السيد حسن كوجك من أئمة المقام الحنفي» [١٨].

ومنهم: عبدالمجيد بن عبدالعزيز الأزري مولاهم المروزي الأصل أبو عبدالمجيد المكي،روي عنه مسلم، وتوفي بمكة سنة ٢٠٦هـ[١٩] ومحمد بن إسحاق بن شبويه الخراساني ثم البيكندي، قدم مصروحدث بها عن عبدالرازق بن همام وغيره ثم خرج إلى مكة وتوفي بها سنة ٢٦٢هـ[٢٠].

وأبو نصرأحمد بن إسحاق بن شيث بن نصربن شعث الفقيه الصفارمن أهل بخارى، سكن مكة ومات بالطائف بعد سنة ٤٥٠هـ[٢١] و إبراهيم بن حمزة بن نبكي بن محمد الخاواباذي البخاري، سمع بمكة وتوفي بالمدينة في سنة ٥٠٦هـ[٢٢] ومحمد بن عمربن عثمان بن عبدالعزيزبن طاهرالبخاري وأبو بكر الحنفي إمام الحنفية بالحرم الشريف جاورمكة وتوفي سنة ٥٢٥هـ[٢٣] ومحمد بن محمد بن علي الكاشغري أقام بمكة أربع عشرة سنة وتوفي ٥٠٧هـ[٢٤] وعلي بن محد بن المناظربن سعد الدين العلوي علاء الدين المعروف بالخوارزمي نزيل مكة، توفي سنة ٧٦٨هـ[٢٥] ومحمد بن محمد بن شمس الدين المعيد الخوارزمي إمام مقام الحنفية بالمسجد الحرام، توفي بمكة سنة ٨١٣هـ[٢٦] ومحمد بن محمد بن محمد شمس الدين الجعفري البخاري فقيه حنفي جاوربمكة ومات بها أو بالمدينة سنة ٨٢٢هـ[٢٧] ومحمد علي بن محمد ولي البخاري الحنفي المشهوربالقربى أستاذ الإقراء بالمسجد الحرام، توفي بمكة سنة ١٠٧٠هـ[٢٨] وعبد الله بن محمد الطاهربن محمد العباسي المكي أحد علماء الشافعية بمكة، طاشقندي الأصل، توفي بمكة سنة ١٠٩٥هـ[٢٩].

ومن البيوت العلمية أسرة الخجندي التي تعود أصولهم إلى مدينة خجند في إقليم فرغانة بجمهورية أوزبكستان الحالية. منهم: احمد بن محمد بن محمد أبو طاهرالخجندي المدني المتوفى سنة ٨٠٢هـ[٣٠] ومحمد بن طاهربن أحمد بن محمد غياث الدين الخجندي المدني المتوفى سنة ٨٤٣هـ[٣١] و إبراهيم بن أحمد بن محمد البرهان أبو محمد الخجندي المدني المتوفى سنة ٨٥١هـ[٣٢] وعبدالله بن إبراهيم الجلال احمد بن محمد الخجندي المدني سنة ٨٦٣هـ[٣٣] وعلي بن محمد بن إبراهيم بن جلال الدين احمد بن محمد بن محمد أبو النورالخنجدي والمدني مات سنة ٨٧١هـ[٣٤] وأحمد بن طاهربن أحمد بن محمد بن محمد الخنجدي المدني المتوفى سنة ٨٨٠هـ[٣٥] و إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن محد البرهان الجنجدي المدني المتوفى سنة ٨٩٧هـ[٣٦].

المدارس التي أنشأها البخاريون في مكة المكرمة:

تجدرالإشارة هنا إلى أن دولة المماليك التي كانت تحكم مصروالشام وبرز فيها قادة يشار إليهم بالبنان مثل: سيف الدين قطروالظاهربيبرس والسلطان قلاوون ومحمد بن قلاوون وقايتباي والمنصوربن قلاوون ينحدرون من وسط آسيا وبالتحديد من جمهورية قازاقستان الحالية، وهم و إن كانوا قد دحروا المغول في الشام ووقفوا زحفهم على مصروالعالم الإسلامي وتصدوا للصليبيين فإنهم تسابقوا فيما بينها لتقديم التحف والهدايا للحرمين الشريفين وكذلك عمارة الحرمين وبناء المدارس في مكة المكرمة ومن هذه المدارس:

٢- المدرسة الأرغونية

مؤسسها الأميرأرغون الدوادارأحد مماليك المنصورقلاوون، وقدولاه نيابة حلب، وكان له ميل للمذهب الحنفي فأقبل على دراسته ومَهَرَ فيه، إلى أن صاربعد من أهل الإفتاء. وقد دعاه ميله الشديد إلى هذا المذهب إلى تقريردروس الحنفية بدار

العجلة بمكة المكرمة، وأول من درس بهذه المدرسة يوسف بن الحسن الحنفي المكي، فقد درس بها عدة سنين. وفي أيام الفاسي كانت المدرسة تحت إشراف أولاد راجح بن أبي نمي شريف مكة المكرمة في ذلك الحين. وعند الحديث عن المدارس يقول الفاسي في كتابه *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*: «ومنها بالجانب الشامي مدرسة بدارالعجلة، وهي التي عن يمين الخارج من باب المسجد المعروف بباب العجلة.ولم أدر مَنْ وقفها ولامتي وقفت ثم عمل فيها الأميرأرغون النائب مدرسًا للحنفية قبيل العشرين وسبعمائة أو بعدها بيسير» [٣٧].

وقد توقف التدريس بهذه المدرسة والمدرسة الزنجبيلية في الربع الأول من القرن التاسع الهجري وذلك لانتقال المدرس الذي كان يدرس في كل منهما إلى الحرم الشريف [٣٨].

ب – مدرسة قايتباي:

أمرالسلطان المملوكي قايتباي وكيله شمس الدين محمد بن عمر، الشهير بابن الزمن أن يبني مدرسة في مكة المكرمة تدرس فيها المذاهب الأربعة، فاشترى ابن الزمن دارًا من الشريفة شمسية من إشراف بني حسن،ثم هدم الدار، ورباط السدرة ورباط المراغي كي يبني مكانها مدرسة قايتباي.

شرع العمل بها عام ٨٨٢هـ وكان الفراغ من بنائها عام ٨٨٤هـ، وكانت المدرسة جميلة إذ جعلها من الرخام الملون، أما سقفها فكان مذهبًا، وكانت تضم اثنتين وسبعين خلوة ومجمعًا مشرفًا على المسجد الحرام، كما كانت تضم مكتبة، ومئذنة [٣٩]. وقررالسلطان أن يكون بالمدرسة أربعة مدرسين، كل يدرس أحد المذاهب، كما قررأن يكون بالدراسة أربعون طالبًا. وقد أرسل للمدرسة مجموعة كبيرة من الكتب، ويذكرالنهروالي أن المستعيرين أتلفوا الكثيرمن تلك الكتب، ولم يبق منها سوى ٣٠٠ مجلد وقد عمل بنفسه على تجليدها وصيانتها [٤٠] وقد أوقف عليها مؤسسها عدة دور بمكة المكرمة وجعل أجرها وقفًا على المدرسة.

وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري أعيد تنظيم أمور أوقاف هذه المدرسة ففي عام ١٠٨٠هـ عين الشيخ محمد بن سليمان المغربي مشرفًا على شؤون الأوقاف بمكة المكرمة وكان من خيرة علماء المغرب رحل إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وآسيا الصغرى ثم عاد مكة المكرمة وعين مشرفًا على الأوقاف. وفي عام ١٠٨٤هـ أخرج من كان يسكن خلاوي مدرسة قايتباي، وأمر أنتكري أوقاف المدرسة، فارتفع دخل المردسة السنوي من ٦٠٠ قرش إلى ٤٦٠٠ قرش، وعين في المدرسة أربعة مدرسين، بعد أن استبدل تدريس المذهب الحنبلي بتدريس الحديث، ومن المدرسين الذين عينهم: محمد الغزالي الغداسي مدرسًا للفقه المالكي، وعبدالعباسي مدرسًا للحديث [٤١].

رحلات الحج القازاقية القديمة: دراسة تاريخية

كانت رحلة الحج وما تزال من أهم مظاهر الوحدة في العالم الإسلامي من ناحية، كما أنها كانت ولا تزال من أقوى الوشائج والروابط التي تجمع بين المسلمين الذين يأتون لأداء ، فريضة الحج من كل فج عميق من ناحية أخرى. وكانت رحلة الحج خاصة من أهم الإنجازات الثقافية الإسلامية لأنها رصدت لنا معالم طريق الحج، والخصائص الجغرافية للمناطق التي تمربها قوافل الحجاج فضلا عن الأحداث السياسية والعسكرية للناس في تلك المناطق، وعاداتهم، وتقاليدهم إلى جانب فعالياتهم العلمية والفكرية والثقافية.

وقد استأثرت الرحلة إلى بيت الله الحرام في مكة وزيارة الرسول الكريم في المدينة اهتمام كثير من المسلمين في أنحاء الأرض، حيث حرصوا على تدوين مشاهداتهم وانطباعاتهم وأحوالهم في هذه الرحلات وسعى البعض منهم إلى تدوين هذه الرحلات في هذه الديار المقدسة لتكون ذكرى طيبة له وربما جاور البيت لسنوات لكتابة هذا العمل أو ذاك.

ولقد أقام القازاق مساجد ومدارس دينية كثيرة لتعليم الدين الإسلامي، وهناك دلائل كثيرة من أرشيف الدولة على هذا الأمر قبل الثورة البلشيفية سنة ١٩١٧م وكان الحاج الذي يذهب لمكة قبل الثورة ينال احترام الشعب القازاقي لأن لقب «حاج» من أهم الألقاب في وسط آسيا فيصبح الحاج منذ ذلك الوقت مسموع الكلمة ويقدره رجال الدولة والشعب.

وقام الجيل الأول من الحجاج القازاق بنشر كتيبات عن مناسك الحج ودعوا القازاق الآخرين للذهاب للحج، وكان بعض الحجاج يسلكون طريق إيران ومنها إلى مكة المكرمة والبعض الآخر يذهب للحج عن طرق تركيا وقد فصل الحجاج القازاق الأوائل تجربة السفر للحج في كتب صغيرة تع من قبيل «دليل الحاج» و«مرشد الحاج» وكانت هناك طرق كثيرة للحج مها طريق بخارى سمرقند (أوزبكستان) ومنها إلى مزار شريف (أفغانستان) ثم بيشاور (باكستان) ومنها إلى بومباي (الهند) بالطريق البري، ثم بالطريق البحري من بوبماي إلى جدة عبر المحيط الهندي في رحلة شاقة وطويلة. وهي طرق صعبة محفوفة بالمخاطر حيث كان قطاع الطرق يترصدونهم لينهبوا ما معهم من أموال، وتعرض الكثير منها للسرقة والنهب والقتل أحيانًا ومع ذلك لم ينقطع الحجاج القازاق عن هذه الفريضة رغم ما يواجهونه من مخاطر جمة.

ولا توجد لدنيا أي رحلات حج قازاقية أو وثائق خاصة بالحج حتى ثورة ١٩١٧م سواء من قبل الدولة أو الأفراد، ثم كانت أول الرحلات المعترف بها من قبل الدولة ١٨٢٢م حيث خرج مجموعة من الحجاج القازاق للحج من مدينة (قزلجار) في شمال قازاقستان، وكان تجار قوخان وبخارى وكاشغر قد اصطحبوهم معهم في قافلتهم[٤٢].

ويوجد في الأرشيف القازاقي وثيقة تدل على ذهاب أول حاج إلى مكة المكرمة سنة ١٨٢٥م وهو من مدينة (قزلجر) ثم أعطت قازاقستان تصريحًا بالحج

لنحو ٦٥ حاجًا للسفر إلى مكة المكرمة عن طريق روسيا، فكان الحاج القازاقي الذي يعيش في كاشغرعلى حدود الصين يذهب إلى قوجان ثم بخارى ومنها إلى روسيا للحصول على وثيقة السفرإلى مكة المكرمة، ثم يرجع إلى طشقند ومنها إلى كابل (أفغانستان) عن طريق البر ومنها إلى بومباي (هند) حيث يركب باخرة إلى جدة.

وهناك قصص كثيرة لحجاج قازاق خرجوا للحج ولكنهم توقفوا في اسطانبول أو جاوروا في مكة المكرمة والمدينة المنورة سنوات طويلة تعلموا فيها اللغة العربية والعلوم الإسلامية ونالوا الإجازات العلمية من الحرمين الشريفين، ثم عادوا إلى قازاقستان وفتحوا مدارس لتعليم الأطفال اللغة العربية وتحفيظهم القرآن الكريم.

ونذكرمن هؤلاء الحاج الرحمن بن سيفيريندي الذي كان ينحدرمن أسرة قازاقية ثرية بذل الجهد في طلب العلم، واستقل الباخرة إلى مكة المكرمة ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى مكة المكرمة، فمكث في اسطانبول حيث تعلم اللغة التركية وأتقنها، وعمل في مجال الطباعة لمدة ثلاثة سنوات، بعدها توجه إلى المدينة المنورة، وهناك تعلم اللغتين العربية والإنجليزية ثم عمل في التدريس في إحدى مدارس مكة المكرمة، وعلّم العديد من أطفال العرب لمدة ثلاثة سنوات، ومكث في مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة، ثم عاد إلى قازاقستان مع الحجاج القازاق وأصبح إمامًا في مدينة (زايستان) التي تقع في شرق قازاقستان.

وبعد فترة من الوقت وشي به لدى الحكومة الروسية فقررالهجرة إلى الصين مع أسرته ١٩٣٥م، وهناك انكب على ترجمة القرآن الكريم من اللغة التركية إلى اللغة القازاقية في سنة ١٩٣٧م، وانتهى من الترجمة بعد ثماني سنوات وتقع الترجمة في أربعة أجزاء[٤٣].

كان الحاج عبدالرحمن عالمًا متعمقًا في الدراسات الدينية في عهده، كما كان عالمًا بجغرافية العالم وتاريخه خاصة تاريخ العرب والأتراك، وتحدث مع أهل قازاقستان عن تجربته الإيمانية في الحج وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، وذكرمعلومات مهمة عن عَرَفة والمناسك.

صورة مكة والمدينة والحج في رحلات الحج القازاقية الحديثة

فيما يلي نماذج من رحلات الحج القازاقية الحديثة الشفاهية.

١ – رحلة الحاجة مرحمت بنت الحاج عبدالرؤوف مخسوم من مدينة ألماطي بقازاقستان: تقول السيدة مرحمت: «السلام عليكم يا أخي المسلم أتحدث الآن عن رحلتي إلى مكة المكرمة للحج وأداء الركن الخامس من أركان الإسلام وقد شعرت بطمأنينة في القلب وعزمت بعد العودة من الحج أن أكتب هذه الرحلة لكي يستفيد منها الأهل والأصدقاء، وقد تغيرت حياتي كثيرًا بعد هذه الرحلة وزيارة قبرالرسول(ص). أنا أسمي مرحمت بنت الحاج عبدالرؤوف مخسوم، ولدت في أسرة متدينة متمسكة بسنة رسول الله(ص)، ولهذا فأنا منذ صغري أعرف المدينة المنورة ومكة المكرمة، ولكن لأننا كنا نعيش في الاتحاد السوفيتي الشيوعي كانت رحلة الحج بالنسبة لنا أملاً بعيد المنال، ولكن الحمد لله بعد زوال الاتحاد السوفيتي جاءت لنا الفرصة لزيارة الأماكن التي بدأ فيها الإسلام، ومشيت على الأرض التي مشى عليها الرسول الكريم،والحمد لله فأنا منذ صغري أصلي وأصوم، وأتمسك بأركان الإسلام، والآن أمامي فرصة لأداء الركن الخامس وهو الحج.

كنت مسرورة للذهاب إلى الحج، واستيقظت مبكرًا في يوم السفر، فوجدت المنزل يمتلأ بالأهل والأصدقاء، كانوا أيضًا مسرورين برحلتي إلى الحج، وقد

سافرت في يوم ٢٨ يناير سنة ٢٠٠٣م مع شركة «ألماطي لزات» ها هو مطار ألماطي، بدأ الإحساس بالإسلام الحقيقي من هذا المكان، الجميع يرتدون ملابس بيضاء، وفكرت أنني عندما أركب الطائرة أكون كالملاك الطائر، وكنت مسرورة بدأت الطائرة تتحرك وبدأت عيناي تغرورق بالدموع، فقد تركت خلفي مدينة ألماطي والاتحاد السوفيتي السابق وسبعون عامًا من الشيوعية والإلحاد،لم أخف من الطائرة لأنني أعلم أن الله معي، وصلنا إلى جدة وفي اليوم الثاني ٢٩ يناير توجهت في الساعة السابعة صباحًا إلى مكة المكرمة المدينة التي يتمنى أن يراها كان مسلم، ولم أكن أتخيل أن أصل إلى هنا حتى في منامي. وبعد أن لبست ملابس الإحرام وركبت السيارة ولبيت شعرت كأنني إنسانة أخرى، ونسيت كل شيء في الدنيا، وفكرت في عبادة الله تعالى فقط،ولما وصلنا إلى مكة تعجبت من كثرة الناس الذين يمشون في شوارعها، كأنهم أمواج البحر. و إذا نظرت إليهم من بعيد لا تعرف هل هم أمواج البحرأم أمواج الناس. وجال فكري بعدة أسئلة: من أين جاء هؤلاء الناس؟ وكم عدد المسلمين في العالم، وبهذه المشاعرلم أدرك كيف وصلت إلى الفندق في أحد شوارع مكة الجميلة، وسكنت في غرفة كبيرة واغتسلت وصليت وتوجهت إلى المسجد الحرام في التاسعة والنصف مساء، رغم تعبنا من السفر إلا أنني نسيت هذا التعب لأنني أتمنى رؤية المسجد الحرام. كانت الساعة العاشرة مساءًا والمصابيح تنيرشوارع مكة ومحلات البيع مفتوحة وجميع الحجاج يهرعون إلى المسجد الحرام.

وعندما دخلت المسجدالحرام شعرت أنني في عالم آخر، دخلت برجلي اليمنى وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم وبكيت من شدة الفرح، رأيت بالداخل المآذن الساحقة والأنوارالخضراء والبيضاء وسمعت قراءة القرآن الكريم التي اهتزّ لها قلبي وكنت في حالة من الذهول فلم أرالناس من حولي وكان المكان يمتلئ بعبق المسك وريح الجنة.

الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر. ها هي الكعبة رأيتها أمامي عليها كسوة سوداء وتقع في وسط المسجد الحرام، والناس يطوفون حولها بملابسهم البيضاء، طفت بالكعبة التي بارك الله فيها، وصليت في مقام إبراهيم ركعتين، وسعيت بين الصفا والمروة وشربت من ماء زمزم وزرت غارحراء..

ثم بدأت مناسك الحج بالوقوف بعرفة، ودعوت الله كثيرًا لي ولأهلي وأصدقائي وللمسلمين جميعًا، وزرت المزدلفة وذهبت إلى «منى» الذي أمرالله سيدنا إبراهيم أن يذبح ابنه إسماعيل فيها. وقد سمعت بهذه القصة من أبي وأنا صغيرة، وقد رأيت الناس يمشون في ساحة كبيرة في منى، وكأنها بلا نهاية وبلا بداية، والجميع يرتدون الثوب الأبيض ففكرت في نفسي: أليس هذا المشهد يشبه مشهد يوم القيامة؟! وشعرت كأن القيامة قد قامت، ونسيت الدنيا كلها، ولاأستطيع أن أعبربلساني عما شعرت به في ذلك الوقت، كانت هذه التجربة مفيدة لي جدًا وتأثرقلبي بها وأصبح خاشعًا.

بعد رؤيتي للأمكان المقدسة فكرت في حياتنا في عهد الاتحاد السوفيتي المنحل، فمع أن يقيني بالله كان كاملا إلا أنني لم أتمكن من أداء الصلوات في أوقاتها، ولم أصم، وما كانت تتاح لي فرصة الحج، وتربية أولادنا كانت في مدارس روسية شيوعية. أما الآن فإننا نعيش في عصرالحرية التي منحت لكل قومية وجنسية حرية الدين، ويجب علينا تفهيم الشباب أن الدين الحقيقي هو الإسلام. وعندما نعبد الله وحده فقط ونتمسك بالدين يفتح لنا الله أبواب الخير.

لقدكنا بعيدين عن الدين أيام الاتحاد السوفيتي، ولم يعلّمنا أحد الدين الإسلامي، وكنا لانرى أحدًا أعلى من رئيس الدولة، فقد كان كالإله، حاشا لله والحمد لله فقد رجع لنا الإسلام ورجعنا إلى الإسلام.

توجهنا إلى المدينة المنورة بعد ذلك وفي الطريق كانت السيارات تقف للاستراحة ويأتي أهل تلك الأماكن بالطعام والماء للحجيج، ووصلنا إلى المدينة

المنورة التي هاجر إليها الرسول(ص) وهي مدينة نظيفة وجميلة وليس بها جبال كثيرة مثل مكة، وجوّها أقل حرارة من جوّ مكة المكرمة، وقد بقيت في المدينة المنورة خمسة أيام وتمتعت كثيرًا بالصلاة في بالمسجد النبوي وفي الروضة الشريفة التي كنت أصلي بها الصلوات الخمس وقد شعرت أن الناس هنا ليسوا بشرًا بل ملائكة، وزرت قبرالرسول(ص) وبكيت من شدة الفرح والسعادة.

والناس هنا لا يوجد في قلوبهم خوف من الدنيا، بل يفكرون في الآخرة وفي الحج المبرورالذي ليس له إلا الجنة، وفي أيام الحج تعلّمت كثيرًا من أموردييني وعرفت الإسلام الحقيقي الذي غاب عنا أيام الاتحاد السوفيتي.

لقد غيرت رحلة الحج حياتي كلّها، فعندما كنت أعيش في الاتحاد السوفيتي لم أكن أعرف الإسلام الحقيقي، وكيف يحب المسلم أخاه المسلم. فكما جاء في الحديث النبوي الشريف أن المسلم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فبعد زيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة رجعت كما ولدتني أمي، وتعودت على الحيات التي عشتها لمدة شهرفقط في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

بعد العودة إلى قازاقستان بدأت أفكرفي نمط حياتي بعد هذه الرحلة، ففي مرحلة طفولتي كان أبي عالمًا في الدين الإسلامي وكان دائمًا ما يتكلم معي عن الإسلام ومكة والمدينة، والكعبة وعندما كبرت رأيت هذه الأماكن والبلاد، وبدأت بدوري أتحدث عنها لأولادي بعد رؤيتي لها، وعلّمت أولادي أن الدين الإسلامي هو الانقياد لأوامرالله ونواهيه، وأن محمد رسول الله أرسله الله ليهدي الناس إلى طريق الحق، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وكل هذا قد تعلمته في رحلة الحج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٢- رحلة الحاج كنج بك بن طلوجي من ميدنة آلماطي بقازاقستان:

..كنت أسمع كثيرًا عن الحج منذ طفولتي من أبي وجدتي التي أخبرتني عن

وجود مكان يجتمع فيه المسلمون من أنحاء العالم لعبادة الله عزوجل، وأن الإسلام قد بدأ كدين الحق في هذا المكان الذي بنى فيه أول بيت لعبادة الله وهو المسجد الحرام، وهناك دعا الرسول محمد عليه الصلاة والسلام إلى الإسلام، وهذا المكان هو مكة المكرمة زادها الله شرفًا.

وفي عهد الشيوعية لم يحج أحد من المسلمين إلى بيت الله الحرام لأن الاتحاد السوفيتي كان يمنع المسلمين من أداء هذا الفرض، كما أن الدين الإسلامي كله كان ممنوعًا، ولم يملك أجدادي سوى الدعاء إلى الله تعالى أن يمنح الفرصة لأولادهم من أجل أداء الحج، والحمد لله فقد استجاب الله لدعائهم واختارني لأداء هذا الفرض، وكنت أنا أدعو الله كثيرًا ليرزقني الحج إلى بيته الحرام.

عندما جاء الخبرإلى عائلتي لم تكن تصدق، لكن الله على كل شيء قدير، وهو قد وهبني هذا السفرالمبارك لزيارة أم القرى والمدينة المنورة، وكانت رحلتي للحج في عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م وعند وصولي إلى مطارآلماطي بقازاقستان وجدت كثيرًا من الحجاج القازاق ينتظرون موعد اقلاع الطائرة، ولاحظت علامات البِشر والسرورعلى وجوههم، وأعينهم تملؤها الفرحة، ودعونا الله تعالى أن يكون سفرنا آمنا.

...وصلنا الرياض في الليل فلم أتمكن من مشاهدتها و إن كانت الأنوار الساطعة توحي بأنها مدينة رائعة، ثم انطلقنا إلى جدة وعندئذ زاد الاضطراب في فؤادي لاقترابي من الأماكن المقدسة، ومازلت لاأصدق أنني أصبحت بين الحاج بإذن الله تعالى، ولساني يحمد الله على هذه النعمة، لقد جئت إلى هنا لأكمل الركن الخامس من أركان الإسلام، ولكي أشاهد الأماكن المقدسة التي ظهر فيها فجرالإسلام، وحمدت الله الذي وهبني هذا السفرالمبارك.

وعندما وصلنا إلى مدينة جدة صلينا صلاة الصبح في المطار، وبدأنا التلبية وركبنا الحافلة من مطارجدة مباشرة إلى مكة المكرمة، واسترحنا قليلا في الفندق، ثم توجهنا لأداء العمرة وكان منظرالمسجد الحرام رائعًا، وقد اهتزّت قلوبنا

لرؤية الكعبة لأول مرة، والجميع يرتدون ملابس بيضاء، وتخيل أن ملايين المسلمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي عربًا وعجمًا يدعون ربًا واحدًا، وهم في ملابس واحدة، وملابس الإحرام ترمزإلى المساواة الحقيقية بين الجميع، وهذا المنظر يذكرالمرء بأول عهده بالآخرة حين يفارق هذه الحياة ومباهجها، ولا يخرج منها إلا بكفنه الذي يشبه لباس الحاج، وفي ذلك حثّ له على العمل للآخرة والتزود بالتقوى.

كنا في منى ثلاثة أيام ومنها ذهبنا إلى عرفة، هذا المكان المقدس في الجزيرة العربية، وكان إمام مسجد ألماطي بقازاقستان ضمن مجموعتنا، فاستفدت منه كثيرًا، وأجاب عن أسئلتنا وأخبرنا بمناسك الحج، وقال لنا أن الوقوف بعرفة هو شرط من شروط الحج وأن في الحج تكفيرللذنوب ونزول فيض من رحمة الله عزوجل على عباده إذ يقال: إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة.

وقضينا بعرفة يومًا من طلوع الشمس حتى غروبها ودعونا الله بالرحمة والمغفرة لنا ثم نزلنا إلى المزدلفة وجمنا الجمرات منها، ولكني فقدت مجموعتي ودخلت بالصدفة في مجموعة حجاج من إحدى الدول العربية، وكان إمامهم يتحدث عن الحج، ومع أنني لاأتقن اللغة العربية لكن روحي وحواسي كانت معهم وأفهم ما يقوله الإمام!!!

أخذت بعد صلاة الفجرأبحث عن مجموعتي فلم أجدها، فانطلقت بمفردي إلى منى وهناك جمع الله شملي بهم، وحلقنا رؤوسنا وقمنا بتقليم الأظافر، وانصرفنا من منى إلى مكة المكرمة في الصباح الباكر، وجئنا لزيارة الكعبة، وعند الاقتراب من المسجد الحرام توضأت مرة ثانية وصليت ركعتين أمام المسجد وعند دخولي في المسجد أغرورقت عيناي بالدموع، وفرحت روحي،هنا في هذاالمقام يتضاعف إيمان المسلم آلاف المرات، وبعد الدخول في المسجد الحرام صليت ركعتين كذلك وحمدت الله أن منحنى الله نعمة تقبيل الحجرالأسود، ويقال أنه

يشهد أمام الله سبحانه وتعالى يوم القيامة. ثم صليت ركعتين في مقام إبراهيم وخرجت بعدها إلى الصفا والمروة للسعي بينهما حيث بدأت بالصفاء وانتهيت بالمروة.

بعد ذلك رجعت من مكة إلى منى وفي اليوم الحادي عشر رمينا الجمرات الثلاثة، وهذا الرمي شعيرة من شعائرالحج وهي ترمزإلى الشيطان الأكبروالأوسط والأصغرلعنة الله عليهم أجمعين.

ثم سافرنا إلى المدينة المنورة لزيارة الرسول(ص) فقد قال: «من زراني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي» والمدينة المنورة جميلة بمسجدها النبوي الشريف وبسكانها وقد زرت المسجد النبوي فوروصولي. ثم زرت قبرالرسول وقبورأصحابه، كما قال الرسول(ص): «من زارقبري وجبت له شفاعتي» ودعوت الله أمام قبر الرسول أن يشفع لي يوم القيامة، ويتقبل الله حجي، ثم زرت الأماكن المقدسة الأخرى في المدينة المنورة، ومنها جبل أحد، وقبرسيد الشهداء حمزة رحمه الله ومسجد القبلتين، ودعوت الله أن يمنحني الفرصة ثانية لزيارة المدينة المنورة وقد قضيت أربعة أيام في المدينة المنورة.

ورجعت إلى مكة المكرمة مع رفاقي وطفنا طواف الوداع وهو واجب على كل حاج وقضيت اليوم بأكمله في المسجد الحرام وقد جذبني إليه وسلب عقلي، وروحي كانت تحلق في المكان، ولم أكن أريد أن أعود إلى أهلي، وشربت من ماء زمزم وأخذت منه لأهلي في قازقستان. ربما لم أقل الكثيرعن سفري المبارك، ولكن ما قلته كان يخرج من فؤادي، وأصبحت بحمد لله تعالى «الحاج». وفي النهاية أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يمنّ بالحج على كل مسلم في قازاقستان وفي العالم كله،وأسأل الله تعالى الرحمة والمغفرة.

المصادر والمراجع:

١ – محمد السيد سليم ورجاء إبراهيم سليم: *الأطلس الآسيوي*. مركز الدراسات الآسيوية كلية الاقتصاد وعلوم السياسية جامعة القاهرة. القاهرة ٢٠٠٣م.

٢- محمد علي البار: *المسلمون في الاتحاد السوفيتي* (جزءان)، الطبعة الأولى. دار الشروق جدة ١٩٨٣م.

٣- محمد عبدالقادر أحمد: *الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي بين الماضي والحاضر*، مكتبة النهضة المصرية. القارة ١٩٩٢م.

٤- ابن الأثير: *الكامل في التاريخ*، دار صادر بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

٥- سيف بن عمر الضبي : *كتاب الردة والفتوح*، تحقيق قاسم السامرائي. لندن سميت كامب ١٩٩٥م.

٦- محمود شاكر: *المسلمون تحت السيطرة الشيوعية*، الطبعة الثانية. المكتب الإسلامي بيروت ١٩٧٩م.

٧- حسن أحمد محمود: *الإسلام في آسيا الوسطى*. الهيئة المصرية العامة للكتاب .القاهرة ١٩٧٢م.

٨- حسن أحمد محمود: *الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي* دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦٨م.

٩- أحمد السعيد سلميان: *انتشار الإسلام في آسيا*، الرياض ١٤٩٩هـ.

١٠- ياقوت الحموي: *معجم البلدان*، دار صادر بيروت (د.ت).

١١- محمد نصر مهنا: *الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي*، الطبعة الأولى المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية ١٩٩١م.

١٢- الكساندر بنجسين وشانتال كيلك جاي: *المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي*، ترجمة عبدالقادر ضللي. بيروت ١٩٨٩م.

١٣- السعيد عبدالمؤمن السيد كرم: *أضواء على طوران*، رابطة العالم الإسلامي. (ب.ت).

١٤- أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي: *الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز: الحاضر والمستقبل*، مركز الدراسات الشرقية جامعة القاهرة ٢٠٠٠م.

١٥- محمد حرب: *المسلمون في آسيا الوسطي والبلقان*، القاهرة ١٩٩٣م.

١٦- ارمينوس فامبري : *تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر*، ترجمة أحمد محمود الساداتي. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. (القاهرة (د.ت).

١٧- نجدة فتحي صفوت: *العرب في الاتحاد السوفيتي ودراسات أخرى في العلاقات التاريخية والثقافية بين العرب والروس*، منشورات مكتبة آفاق عربية بغداد (د.ت).

١٨- على اليزدي: *ظفرنامه*، تصحيح وتحشية مولوي إله دار كلكتا بيست مشن برس ١٨٨٨م.

١٩- نجم الدين الغزي: *الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة*. تحقيق جبرائيل جبور مطبعة محمد أمين دمج وشركاه بيروت. (د.ت)

٢٠- أحمد السباعي: *تاريخ مكة*، الجزء الثاني. الرياض ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٢١- عبدالله العثيمين (دكتور): *الشيخ محمد عبدالوهاب حياته وفكره*. دار العلوم الرياض.

٢٢- الفاسي (تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني. *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*، تحقيق فؤاد سيد الطبعة الثانية. مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢٣- التميمي الداري (تقي الدين بن عبدالقادر الغزي المصري): *الطبقات السنية في تراجم الحنفية*، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو. دار الرفاعي الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٤- السخاوي (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن ت: ٩٠٣هـ) : *التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة*. المدينة المنورة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢٥- عبدالله مرداد أبو الخير (ت: ١٣٤٣هـ) : *نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر*. اختصار وترتيب وتحقيق محمد سعيد العمودي وأحمد علي الطبعة الثانية عالم المعرفة. جدة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٢٦- الزريكلي (خير الدين): *الأعلام*، بيروت، (د.ت).

٢٧- السخاوي: *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع*، الجزء الثاني، دار مكتبة الحياة ، بيروت.

٢٨- الفاسي : *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*، مكتبة النهضة الحديثة مكة المكرمة ١٩٥٦م.

٢٩- عبدالرحمن بن صالح عبد الله (دكتور) : *تاريخ التعليم في مكة المكرمة*، دار البشير، عمان، الطبعة الثالثة: ١٤٢٢هت / ٢٠٠١م.

٣٠- السنجاري (علي بن تاج الدين): *منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم*، مخطوط في مكتبة الحرم المكي، ثلاثة أجزاء.

٣١- النهروالي (قطب الدين محمد بن أحمد): *الإعلام بأعلام بيت الله الحرام*، مكة المكرمة ، المكتبة العلمية ١٤٧٠هـ.

٣٢- قوربان علي: *التواريخ الخمسة* (باللغة القازاقية)، قازان. روسيا ١٩١٠م.

٣٣- قل موقان وعيسى باي: *الحجاج القازاق*. (باللغة القازاقية) آلماطي .آنا تيلي . ١٩٩٢م ٣٤ – عبدالستار دربساله: *الحجاج القازاق*. (باللغة القازاقية) آلماطي. الإدارة الدينية قازاقستان ٢٠٠١م.

٣٤- مختار عوض: *طريق آباي* (مجلدان) (باللغة القازاقية) مطبعة جازو شاه. آلماطي. ١٩٨٦م.

الهوامش:

١ ـ اللغة القازاقية هي اللغة القومية لجمهورية قازاقستان، وهي فرع من اللغات التركية، تستعين بكلمات كثيرة من اللغات العربية والفارسية والمغولية والروسية،أما الخط فقد كانت الكتابة حتى عام ١٩٢٤م بالخط العربي والأبجدية العربية، وحدث تعديل للخط العربي من ١٩٢٤م إلى ١٩٢٩م ثم تبدل الخط والحرف الى اللاتينية من ١٩٢٩م إلى ١٩٣٨م، ثم تحول الخط إلى الكيريلي اعتبارا من عام ١٩٤٠م إلى ١٩٥٧م،والأبجدية الموجودة حاليا هي القازاقية. *الأطلس الأسيوي*: تحرير محمد سيد سليم ورجاء إبراهيم سليم. مركز الدراسات الآسيوية. كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. جامعة القاهرة. ٢٠٠٣م ص: ٣٢٥.

٢ ـ المجاورة: المساكنة والمصاقبة والمقاربة« والجار هو الذي يجاورك بيتا ببيت» (تاج العروس مادة: جور) وتجاور القوم واجتوروا بمعنى جاورته مجاورة وجوارًا، والجوارة الاعتكاف في المسجد، وفي الحديث: كان يجاور في العشر الأواخر، والجار: الذي أجرته من أن يظلمه ظالم واستجاره من فلان فأجاره منه، وأجاره الله من العذاب أنقذه» (*الصحاح*: مادة جور).

٣ ـ الكساندر بنجسين وشانتال كليكجاي: *المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي*، ترجمة عبدالقادر ضللي بيروت١٩٨٩م ـ ١٤ - ١٦.

٤ ـ السعيد عبدالمؤمن السيد كرم: *أضواء على تاريخ طوران*. رابطة العالم الإسلامي (ب .ت) ٦٨.

٥ ـ محمد حرب: *الأبعاد التاريخية لنشوء الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى*. بحث في ندوة مستقبل العلاقات العربية مع الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى . الرياض. ٢٠ ـ ٢١ ذو القعدة ١٤١٦هـ ١٩٠٨ أبريل ١٩٩٦م ٣٠٠.

٦ ـ فائق فهيم: واقع الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى بعد سقوط الاتحاد السوفيتي. مجلة الحرس الوطني. الرياض. السنة : ١٣، العدد ١١٧، ذو القعدة. ١٤١٢هـ ٢١٣.

٧ ـ محمود متولي: المسلمون والحكم الشيوعي: دراسة تاريخية. ضمن أبحاث مؤتمر آسيا الوسطى والقوقاز الأزهر. القاهرة ٢٨ ـ ٣٠ سبتمبر ١٩٩٣م ٢٤٨ - ٢٥٠.

٨ ـ الكساندر بنجسين وشانتال كليكجاي: *المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي* ١٥٥ - ١٥٦.

٩ ـ أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي (دكتور): *الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز*

١٠ ـ محمد حرب (دكتور): *المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان*. القاهرة ١٩٩٣م ٨٩ - ٩٠.

١١ ـ يحيى محمود بن جنيد الساعاتي: المرجع السابق ٣٢٥.

١٢ ـ حسن أحمد محمود: *الإسلام في آسيا الوسطى* ١٩٤٠.

١٣ ـ محمد علي البار: *المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ* ٢٠/٨٠.

١٤ ـ مختار أويزوف: *طريق آبادي*. (باللغة القازقية) مطبعة جازو وشاه . آلماطي ١٩٨٩: ٢/٨٠.

١٥ ـ أحمد السباعي : تاريخ مكة. الجزء الثاني. الرياض ١٤١٩هـ/١٩٩٩م. ٦٤٠.

١٦ ـ أحمد السباعي: المرجع السابق: ٦٤٤.

١٧ ـ عبدالله العثيمين (دكتور) : *الشيخ محمد بن عبد الوهاب حياته وفكره*. دارالعلوم. الرياض ٣١٠.
١٨ ـ أحمد السباعي: تاريخ مكة ٦٢٢/٢.
١٩ ـ الفاسي (تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني) : *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*. تحقيق فؤاد سيد .ط.مؤسسة الرسالة. بيروت ١٤٠٥/ ١٩٨٦م ٤٩٢/٥.
٢٠ ـ الفاسي: المرجع السابق ٤١٠/١٠.
٢١ ـ التميمي الداري (تقي الدين بن عبدالقادرالغزي المصري) *الطبعات السنية في تراجم الحنفية*. تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو.دارالرفاعي. الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ٢٧٦.
٢٢ ـ السخاوي (شمس الدين أبو عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن ت: ٩٠٢هـ): *التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة. المدينة* المنورة ١٤٩٩هـ/ ١٩٨٩م ١/١١٢.
٢٣ ـ الفاسي: *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين* ٢٠٩/١.
٢٤ ـ الفاسي: المرجع السابق : ٣١٧/٦.
٢٥ ـ الفاسي: المرجع السابق: ٢٥٢/٦.
٢٦ ـ الفاسي: المرجع السابق. ٣٤٩/٢ - ٣٥١.
٢٧ ـ الزريكلي: *الأعلام*: ٧/ ٤٤ - ٤٥.
٢٨ ـ عبدالله مرداد أبو الخير(ت: ١٣٤٣هـ): *نشرالنورو الزهرفي تراجم أفاضل مكة من القرن العاشرإلى القرن الرابع عشر*، اختصاروترتيب وتحقيق محمد سعيد العمودي وأحمد علي.الطبعة الثانية. عالم المعرفة جدة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. ٤٠٩.
٢٩ ـ عبدالله أبو الخير: *نشرالنور*٣٠٣.
٣٠ ـ السخاوي: *التحفة اللطيفة*. ٢٥٣/١.
٣١ ـ السخاوي: المرجع السابق ٥٨٨/٢.
٣٢ ـ السخاوي: المرجع السابق ١٠٥/١.
٣٣ ـ السخاوي:المرجع السابق ٢٤٦/٣.
٣٤ ـ السخاوي:المرجع السابق. ٢٤٦/٣.
٣٥ ـ السخاوي:المجرع السابق ١٨١/١ - ١٨٢.
٣٦ ـ السخاوي:المرجع السابق:١٣٤/١.
٣٧ ـ الفاسي : *شفاء الغرام بأخبارالبلد الحرام* مكتبة النهضة الحديثة ١٩٥٦م ٣٢٨/١.
٣٨ ـ السخاوي: *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع*. دارالمكتبة الحياة.الجزء الثاني.١٧٩ نقلا عن عبدالرحمن بن صالح عبدالله: *تاريخ التعليم في مكة المكرمة*. دارالبشير. عمان . الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م ٤٩ - ٥٠.
٣٩ ـ السنجاري (علي بن تاج الدين): *منائح الكرم في أخبارمكة والبيت وولاة الحرم*. مخطوط في

مكتبة الحرم المكي ثلاثة أجزاء.الجزء الثاني: ٢٥٠.

٤٠ .النهروالي (قطب الدين محمد بن أحمد): *الإعلام بيت الله الحرام*، مكة المكرمة المكتبة العلمية. ١٣٧٠هـ ١٩٨.

٤١ .عبدالرحمن بن صالح عبدالله: *تاريخ التعليم في مكة المكرمة* ٥٩ - ٦٠.

عبدالستار دربساله: *الحجاج القازاق* (باللغة القازاقية) الإدارة الفدينية.الماطي قازاقستان. ٢٠٠٢م ٩٠

٤٢ .آقمولا تعني القبر الأبيض في اللغة القازاقية وقد تغير اسمها الآن إلى استان وأصبحت العاصمة الجديدة لقازاقستان بعد مدينة آلماطي التي تعني أبو الفتاح..

٤٣ .المرجع السابق: ١/ ٨٠-٨٣.